تدبّر وبيان في الدّقة والإحكام في القرآن
(آيتا الشمس والقمر نموذجًا)

د. علي عبد الرحمن ابراهيم الفيتوري

جامعة مصراتة .. كلية الاداب قسم اللغة العربية

Afgdjy8900@gmail.com

استلمت الورقة بتاريخ 2025/07/02، وقبلت بتاريخ 2025/07/24 ونشرت بتاريخ 2025/07/26

الكلمات المفاتيح:
تدبّر – الشّمس – القمر – النّفس – حمئة

Keywords:
Contemplation – the Sun – the Moon – the Self – ḥami’ah (murky spring)

الملخص

اقتضت حكمة الله تعالى، أن تكون الرسالة الخاتمة بلسانٍ عربي مبين، هذا اللّسان الذي يحافظ على أساساته الأولى، ويتألّق في التناغم مع المستجدّات، فقلّما يتعصّى فهم مدلول لفظ قديم عن متأمّله اليوم، لكنّ العصيّ في كثير من الأحيان، هو ما توحي به الصورة في الزمن القديم وما تجلّى علميًا عن تلك التي كانت أداةً في تلك المشاهد التصويرية، فما كان يتراءى للعقول من صورة الشّمس والقمر، لم يعد العقل يقبلها اليوم، فلا يمكن لعاقلٍ اليوم أن يقبل غياب الشّمس في كوكب الأرض، فالكل يدرك أن غروب الشّمس في هذا القطر هو شروق في غيره... كل هذا يدعو إلى التدبّر العميق في الذي لا يأتيه الباطل، وأنْ يكون التدبّر بعقلٍ منصفٍ يعي أنّ القرآن لا يحتاج إلّا إلى النظرة الصادقة المنصفة النّزيهة، لتتراءى دقّته وإحكامه وعجائبه، وقد بدا من خلال هذا البحث الإعجاز في الخطاب القرآني الذي لا إشكال في الخطاب به، رغم اختلاف أحوال المتلقّين وأزمنتهم، وأنّ الصّور فيه موظّفة توظيفًا دقيقًا تتجلّى روائعها مع تجلّي الحقائق العلمية.

Abstract:
By the wisdom of Allah Almighty, the final revelation was ordained in clear Arabic—a language that preserves its foundational roots while brilliantly harmonizing with new developments. Rarely does the meaning of an ancient word elude the contemplator today, but what often proves challenging is reconciling the imagery of the past with modern scientific revelations. The mental image people once had of the sun and the moon, for instance, is no longer acceptable to the rational mind today. No sensible person today would accept the notion of the sun "disappearing" on Earth, for everyone understands that sunset in one region means sunrise in another... All this calls for profound reflection upon the infallible (Quran), and for such reflection to be conducted with a fair-minded intellect—one that recognizes the Quran needs nothing but a sincere, unbiased, and honest gaze to reveal its precision, perfection, and wonders.
This research highlights the miraculous nature of Quranic discourse, which remains flawless despite the varying circumstances and eras of its recipients. The imagery employed in it is meticulously crafted, with its brilliance becoming ever more apparent as scientific truths unfold.

مقدمة:

لا يخفى على من يُعنى بدراسة الخطاب، ما يتطلّبه الخطاب العام من عناية وإحكام، وذلك كون المتلقي غير محددٍ في شخصٍ بعينه، فكلّما اتّسعت وجهة الرسالة وابتعدت، كان الخطاب أشدّ حساسية وأحوج إلى العناية والإتقان، فاختلاف الأزمنة، واختلاف البيئات من عوامل تعصّي فهم الخطابات، وبالتّالي يكون في حاجة إلى اللغة

Afgdjy8900@gmail.com

التي تحتوي الجميع، ويتطلّب أن تكون الصورة فيه قادرةً على إيصال الغاية منها، رغم اختلاف المتلقّين، وبما تتطلّبه قدرات الأجيال المتعاقبة والمتفاوتة، وما تجود به تلك البيئات لتقريب الصور المرسلة في ذاك الخطاب، ولا بدّ أن تكون تراكيبه مُحكمة إحكامًا يجعل الصور والألفاظ في توافق تام، فتعبّر عن المضامين في دقّة ووضوح وبيان.

والذي لا مراء فيه أنّ المتدبّر الحصيف في الخطاب القرآني يعي أنَّ هذا الخطاب يتعصّى على الخلق أن يأتوا بمثله فُرادى أو مجتمعين، ففيه خطاب المتلقي في طوره الأوّل ذاك الطور البدائي الذي يكون فيه التسليم للمحسوسات أكثر من إعمال العقل بالتقدير والحسابات فهو لا يرى الشمس إلّا في حجمها الذي يتراءى فيه للناظرين، وكذلك يرى القمر، وفيه خطاب المتلقي – اليوم – الذي يعي أنّ الأرض أصغر حجمًا من الشمس فلا يمكن غياب الأكبر في الأصغر، ولا يمكن احتواء الصغير الكبير.

فلولا إحكام هذا الكتاب، ومعرفة المرسل بأحوال المرسل إليه، لما وجدنا هذه الدقّة وهذه الصياغة التي تحتوي المتلقي في جميع أطواره وأزمانه.

ولعلّ الحاجة اليوم إلى التدبّر في كتاب الله أشدّ إلحاحًا، فقد تيسّر للناس النظر في هذا الكتاب من البعيد ومن القريب، ومن المنصف ومن المشتط، وقد تُستغلّ بعض الجوانب التي يتعصّى فهمها على الناظرين بالنظرة العجلى، في الإزاحة عن الصراط المستقيم، فالمقصود من هذا العمل، هو الإسهام في تيسير الوصول إلى أبعاد هذا الخطاب – ما أمكن – وتذوّق روائعه، وإزالة شيءٍ ممّا يعيق الأفهام عن بلوغ نفائس هذا الذِّكر الحكيم.

والباحث إذ يعتلي هذا المركب الصعب، يعي تمامًا، أنّه القاصر بعقله وحواسه، ولكنّه المأمور بالتدبّر في آيات الله؛ والشمس والقمر من أعظم تلك الآيات الكونية المبهرة، التي سيدور حولها الحديث في هذا البحث، مستعينين بالله تعالى مستخدمين ما تيسّر من المناهج التي من شأنها أن تعين على بلوغ الغاية أو مقاربتها.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[1]

لا شكّ في أنّ هذا القرآن نزل بلسان عربي مبين، والخطاب فيه لكل عاقل من الإنس والجن، والبيئة التي كان يتنزّل فيها هي شبه الجزيرة العربية، وكانت همساته الأولى في تلك العقول التي نشأت في تلك البيئة، وعرفت أسرارها وخفاياها، بل وتحسّست عظائمها ومثيراتها، ولعلّ من أبرز ما ترقّبته العيون وتأمّلته العقول في تلك البيئة البدائية، هما الشمس والقمر، فكانتا في القصائد والأشعار للتعبير عمّا يختلج في تلك النفوس المعجبة بما يتراءى فيهما، فهذه الخنساء عندما أرادت الحديث عن رزئها العظيم في أخيها صخر قالت:

كُنّا كأنجم ليل وسطُها قمرُ *** يجلو الدّجى فهوى من بيننا القمرُ[2]

وقالت في مشهد آخر تعبّر فيه عن مرارة فقدها وعِظَمِ الفقيد:

يذكّرني طلوعُ الشمس صخرًا *** وأذكره لكل غروب شمسِ[3]

ولا يمكن معرفة أبعاد هذا البيت وأبعاد سابقه إلّا بمعرفة تلك البيئة معرفة واسعة، ومعرفة تلك الإيحاءات التي يستلهمها المتأمّل من توظيف طلوع الشمس والغروب.

بل ما يعنيه صخر وأمثاله في مجتمعاتهم وما تعنيه تلك القيم الإنسانية النبيلة، فلم تر الخنساء أخاها إلّا بدرًا يستضاء به فقالت:

يا صخرُ قد كُنت بدرًا يستضاء به *** فقد ثوى يوم متَّ المجدُ والجودُ[4]

وهذا شاعر السموّ والحكمة زهير بن أبي سُلمى، يختتم قصيدته التي يذكر فيها مروءة هرم بن سنان وجميل خصاله، بالبدر فيقول:

([1]) سورة فصلت الآية 36.
(2) شرح ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عباس إبراهيم، دار الفكر العربي بيروت ط 1، 1994، ص 34.
(3) السابق، ص 56.
(4) السابق ص31.

أُثني عليكَ بما عَلِمْتُ وما *** سلّفْتَ في النجدات والذّكْرِ

لو كُنتَ من شيءٍ سِوَى بشرٍ *** كنتَ المُنوّرَ لَيلَةَ البَدْرِ[1]

ولا شكّ في أنّ أثر هذه الأبيات يختلف في نفوس السامعين فمن عرف أنَّ زهيرًا لم يمدح أحدًا إلّا بما فيه[2] ليس كمن يظنّه من المتكسبين بالشعر، ومن عرف أنّ هرم بن سنان مستحق لهذا الذّكر بحقنه الدماء المهراقة في تلك البيئة المضطربة، وما عُرف به من جميل الخصال[3]، ليس كمن يظن أنّه يضع القول في غير موضعه.

فعندما يستحضر متدبّر الآية القرآنية السابقة، هذه المكانة الجليلة للشمس والقمر في نفوس أهل تلك الحقبة، يعي الرحمة والدّقّة في توجيه الخلق إلى عبادة مَنْ خَلقَ الشمس والقمر، فما هما إلا علامة على عِظمِ الله تعالى وبديع صنعه فـ (الآية: العلامة الظاهرة، وحقيقته كل شيء ظاهر ملازم لشيء لا يظهر ظهوره فمتى أدرك الظاهر منها علم أنّه أدرك الآخر الذي لم يدركه بذاته إذ كان حكمهما واحد) [4]

ولعلّ فيما طرأ على إبراهيم عليه السلام، عندما رأى الشمس والقمر وهو في طور البحث عن المعبود بحق، ما يؤكّد حاجة الخلق إلى هذا التوجيه الوارد في الآية القرآنية السابقة، الذي يحذّر الخلق من عبادة المخلوقات وإنْ تراءت في عِظمٍ وجلال.

وإنّه لمن مقتضيات هذا البحث، الوقوف بالتدبّر في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيَ أَرَيٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ [5]

فطرة نقيّة وعقل متوقّد ونفس مطمئنة، وصدق في البحث عن الحق؛ وآيات كونية تتراءى في كمال ونقصان، وفي سطوع وأُفول كل هذا جعلنا نرى إبراهيم عليه السلام – في القصص القرآني – على هذه الحالة، هذه الحالة التي تُبين عن حقيقة الإنسان وما فيه من ضعف وعَجل وقصور، وما فيه من صبر ومثابرة وصدق وإخلاص، فالصدق والإخلاص جعلا إبراهيم عليه السلام يُعمل عقله في البحث عن الخالق المستحق للعبودية، والمستحق للإجلال، وإنّ الأفول الذي بدا لإبراهيم عليه السلام في الكوكب وفي الشمس والقمر جعلها لا تستحق أن تُعبد، فهي دون هذه المنزلة، وذلك لِعِلَّةِ الأفول التي تراءت لإبراهيم عليه السلام، فالذي يُعبد بحق لا يعتريه النقصان، ولعلنا اليوم ندرك أنّ الشمس والقمر لم تأفلا، فهي تسبح في أفلاكها، فيمكن للإنسان الذي يرى غُروبها، أن يراها في أقطارٍ أخرى – في الوقت نفسه – في رابعة النهار، والله سبحانه وتعالى يعلم خفايا النفس البشرية، ويعلم قدرات العقول فهو سبحانه يُطلعنا على خفايا هذا الكون بقدرٍ وحُسبان، فلمّا كان خليله إبراهيم عليه السلام متميزًا عن قومه بعقله الرافض للشرك، المؤمن بعِظم الخالق وجلاله، القادر على استيعاب ما يتجلّى له من ملكوت السماوات والأرض، كان خليقًا أن يرى حقيقة الشمس والقمر والكواكب، لا كما تراءى له من سطوع وأفول، ذاك الذي يراه أهل الأرض في زمانه. فأراد الله له أن يكون من الموقنين ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ**﴾[6] ولا شكّ في أنّ الاطلاع على ذاك النظام البديع المُحكم، ورؤية الشمس والقمر والنجوم والكواكب تسبح في أفلاكها، ومعرفة أسرارها وأسرار البحار والجبال والأشجار نعمة أنعم الله بها على خليله إبراهيم، فـ (ملكوت السماوات: القمر والنجوم والشمس، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار) [7] وتخصيص إبراهيم بهذه الرؤية، لن تكون كرؤية الآخرين من الناظرين، بل هي رؤية الخافايا فلا أظنه من الممكن أن يُبنى إيمان خليل الله إبراهيم على ذاك التوهّم الذي يتراءى لأهل الأرض من سطوع وأفول وزيادة ونقصان، ذاك المرئي الذي نراه اليوم ونؤمن بالحقيقة التي نعرف من خلالها حقيقة الشروق والغروب، والمتدبر في هذا المشهد يعي تمامًا الدقّة المتناهية في الإخبار بتمكين الله إبراهيم من رؤية ذاك الملكوت، وذلك لإزالة ذاك اللّبك الذي اعترى

(1) ديوان زهير بن أبي سُلمى، دار صادر بيروت، (بدون ت ط)، ص 30.
(2) السابق ص 5.
(3) شرح المعلّقات السبع، حسين الزوزني، دار حزم، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص 103.
(4) التوقيف على مهمات التعاريف، زين الدين المناوي، عالم الكتب القاهرة، ط 1، 1990، ص 125.
(5) سورة الأنعام الآيات 75-80.
(6) سورة الأنعام الآية 76.
(7) تفسير الماوردي، تحقيق: السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، (بدون ط ت)، ج 2 ص 135.

إبراهيم عليه السلام، فهو بمعرفة حقيقة الشمس والقمر أكثر إعجابًا من رؤية الشمس والقمر على الصورة المرئية، وبالتالي الإعجاب بقدرة الخالق أعظم وأجلّ.

ولعلّ من مقتضيات البيان الذي يتجلّى في آيات القرآن، الوقوف بالتدبّر في مشهد ذي القرنين: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ**﴾[1] لا يخفى الإحكام والدقّة في التراكيب القرآنية فهي تُشبع حاجة متأمّليها كلٌ حسب إدراكه وفهمه وزمنه دونما تعارض أو إشكال، لأن المرسل يعلم أسرار الخلق وأطوارهم ومستجدات أزمنتهم علمًا أزليًا، وبالتّالي لا تحتاج هذه التراكيب إلّا سلامة القصد في تدبّرها، وبذل الجهد في استنطاق خفاياها، واستحضار التفاوت في منزلة المنطوق حسب مكانة المتكلِّم، فأحيانًا يكون الحديث في القرآن لله مباشرةً، واحيانًا يكون على لسان أحدٍ من خلقه إنسٍ أو جنٍ أو حيوانٍ من نمل أو طير أو غيره.

فكل كلام جاء معبّرًا عن الذات العلية في القرآن الكريم، هو كلام لا يحتمل النقص أو القصور أو الخطأ، أو الإشكال مع مستجدات الكون ومستحدثات الأزمان، أمّا ما جاء على لسان المخلوقات فهو يعبّر عن حال صاحب اللسان ﴿**قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ**﴾[2] فالخوف والحزن جاء على لسان يعقوب عليه السلام كونه لا يعلم الغيب ولا يعلم ما يطرأ على يوسف عليه السلام.

ومحدودية العلم هذه، نجدها فيما ذكره القرآن عن ذي القرنين ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ﴾[3] ومن لوازم استجلاء الصورة، استنطاق الألفاظ، ولفظة وَجَدَ هي من أهم ما يُبينُ عن خفايا هذا التركيب اللغوي، فهي الكلمة التي تختلف معانيها باختلاف مصدرها، وليس للعرب كلمة مثلها، وهي ((مبهمة فإذا صُرِّفَت قيل في ضدّ العدم: وجودًا وفي المال: وُجْدًا وفي الغضب: مَوْجَدة وفي الضَّالّة وجْدانًا وفي الحزن: وجدا)) [4] ومرادفاتها في السياق الذي نُعنى بالتدبّر فيه، هي: (أَلْفَى، عَثَرَ، لَقِيَ)[5].

ولا شكّ في أنّ الألفاظ في القرآن الكريم لا تُلقى جزافًا، فهي مُحكَمة إحكامًا يستوقف المتأملين، فلو تتبعنا استعمالات لفظة وَجَدَ ومرادفاتها في القرآن الكريم لكان ذلك حُجّة كافية للإقناع بأنه ﴿**تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ**﴾[6] فهذه اللفظة المتفرّدة في خصوصيتها، تقتضي حكمته تعالى أن تكون في هذا السياق، ﴿ **وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٖ حَمِئَةٖ**﴾[7] ففي هذا تطيش العقول إلّا من ثبتّه الله، فكيف يكون هذا وهو القائل ﴿**وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ**﴾[8] وفي هذا الجزء من الآية تحصين للعقول من الزيغ، فمن أُخبر بهذا الأمر الذي يفوق إدراك عقول الخلق من أهل الأرض – لا سيما في زمن التنزيل – يقطع الريب عن المتدبّرين في الذِّكر الحكيم، فالتنوين في (كلٌ) تنوين عوض عن كلمة تُقدّر بكوكب وجُرم ونجم وكل ما يسبح في الفضاء، فهي (عوض عن مضاف إليه) [9]، ومُعمل العقل في لفظة (وَجَدَ) يجدها تستعمل في المطلوب أو المرغوب تبيّنه، فلمّا كان زكريَّا – عليه السلام – يُعنى برزق مريم، ويُعنى بمعرفة المتفضّل به كان التعبير بلفظة (وَجَدَ) وذلك في قوله تعالى ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا**﴾[10] وكذلك الأمر في قصّة موسى والخضر عندما أتيا أهل قرية وأبوا أن يضيفوهما، فكانت الحاجة للجدار وإقامته ﴿**فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ**﴾[11] ولمّا كان الأمر على غير المرغوب والمطلوب كان، التعبير بلفظة (لقي) وذلك في قوله تعالى ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ**﴾[12] واستخدام هذا اللفظ نجده في قول عنترة بن شداد:

لقينا يوم صهباء سرية *** حناضلة لهم في الحرب نية[13]

(1) سورة الكهف من الآية 84.
(2) سورة يوسف، الآية 13.
(3) سورة الكهف من الآية 84.
(4) فقه اللغة وسرّ العربية، عبدالملك الثعالبي، تحقيق عبدالرزّاق المهدي، إحياء التراث العربي ط1، 1422 هـ، ص 262.
(5) معجم المرادفات والأضداد، إعداد سعدي الضناوي، جوزيف مالك، المؤسسة الحديثة للكتاب، ناشرون. طرابلس لبنان، ط1، 2007. ص 813.
(6) سورة الواقعة الآية 83.
(7) سورة الكهف من الآية 84.
(8) سورة يس من الآية 39.
(9) الجنى الداني في حروف المعاني، أبومحمد المرادي، تحقيق فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت لنبان، ط 1، 1992، ص 145.
(10) سورة آل عمران من الآية 37.
(11) سورة الكهف من الآية 76.
(12) سورة الكهف من الآية 73.
(13) شرح ديوان عنترة، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، ط 3، 2002، ص 156.

فلا يستقيم التعبير هنا باستخدام (وجدنا) مكان لقينا، لما يحمله هذا اللقاء من معانٍ تتراءى في كره هذا اللقاء أو أنّه لم يكن مرغوبًا، ولعلّنا بالنظر في قصّة يوسف - عليه السلام – تزداد الدّقّة وضوحًا، فلا يستقيم التعبير بالقول ووجدا سيدها لدى الباب، لأنّ الوجود لم يكن مرغوبًا فيه في ذاك الظرف، فكانت دقّة القرآن تقتضي ﴿**وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ**﴾(1) وليس كل ما يتراءى وجوده يُعبّر عن حقيقة مطلقة، فعندما قال الهدهد ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ**﴾(2) قال سليمان عليه السلام ﴿**سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ**﴾(3) والسّياق الذي كان فيه هذا الحديث يقتضي التعبير بأغلظ الألفاظ في هذا الشأن، وهو الكذب، وكان دونه الخطأ أو الوهم أو الغفلة تلك التي تطرأ بمحدودية قدرة النّاظر، فـ (لا تطابق بين ما نسميه الحقيقة وما نسميه الواقع. الحقيقة التي يؤمن بها كلٌّ منّا ليست إلّا صورة جزئية من الواقع الذي لا نفاد لصوره. إذن، عليَّ - إذا كنتُ واقعيّا وأؤمن حقًّا بالواقع – أن أُؤمن أنّ هناك حقائق أخرى تمثّل صورًا أخرى منه. ففي الواقع الواحد، المشترك، حقائق متعددة) (4)، أمّا ما أخبر به الله تعالى فالحقيقة فيه هي الواقع وهي حقيقة مطلقة. فذو القرنين عندما وَجَدَهَا ﴿**تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ**﴾(5) هو وجود بشري خاضع للقدرات البشرية معبّرًا عن الذي بدا لذي القرنين في هذا الشأن، فعندما تعذّر السير في العين الحمئة كان الغروب يتراءى فيها، لا لحقيقة تلك الصورة التي عليها الشمس، المعبّر عنها في السياق الأعم ﴿**وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(6) فهذا الذي نراه من شروق وغروب هو خاص بأهل الأرض، والله سبحانه وتعالى يخاطب عقل الإنسان بما يستوعب، وجعل بهذا النظام المرئي على كوكب الأرض تعاقب الليل والنهار الذي يضبط الأيام والليالي، وجعل للقمر منازل تضبط المواقيت الشهرية على هذا الكوكب، وذلك في دقّة لا اختلال فيها، وعلى هذا النظام المتمثّل في الأيام والأسابيع والشهور والسنين تترتب أحكام وعبادات ثابتة ما دامت السماوات والأرض، فالذي أحكم هذه الآيات الكونية هو المحكم لآيات الذكر الحكيم، ففي إحكامها دقّة لا يجحدها عقل منصف حصيف.

ولا يمكن بحال من الأحوال أن يُتّخذ هذا المشهد الذي بدا لذي القرنين من غروب الشمس في العين الحمئة، ذريعة أو شبهة للنيل من هذا المُحكَم الذي لا يأتيه الباطل، فهذا الذي تراءى لذي القرنين حقيقة، هو جزء من الواقع، لأنّ الواقع هو الذي عبّر عنه الله بالحقيقة المطلقة ﴿**لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾(7) فهذا الذي يتعدّى الزمان والمكان، أمّا ما وَجَدَه ذو القرنين فهو حبيس الزمان والمكان والقدرات المحدودة للخلق وكل من تدبّر الإخبار الأوسع في الآية الكريمة السابقة، ثم نظر بإمعان فيما وَجَدَه ذو القرنين في حال الغروب، يعي أنّها تعبير عمّا توصّل إليه ذو القرنين عن حقيقة غياب الشمس، (وغروبها في العين في رأي العين وإلّا فهي أعظم من الدنيا)(8).

ولعلّ من متمّمات هذا العمل التأمّل في قَسَمِ الله بالآيات الكونية في قوله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيٰهَا وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ (9).

لعلّنا إذ نتدبّر إيمان العرب آنذاك بما يتنزّل من الوحي، ولمّا يكتمل تنزيله، بل ولم يتنزّل منه إلّا بواكيره، نعي أنّهم مهيؤون لذلك بما بلغوا من تألّق في فنون القول، وبما بلغوا من تبحّر في رصد بيئتهم وتوظيفها في التعبير عن خواطرهم، فالأنواء المتمثلة في الأمطار والرياح والبرق والجوزاء والسماء والشمس والقمر ... هي النوع الثالث من العلوم التي اتقنها العرب قبل الإسلام(10) وانشغل بها النقّاد – بعد ذلك – في تبين حُسن توظيفها في الأشعار، والموازنة بين الشعراء(11).

ولا شكّ في أنّ المدرك لتلك الأساليب والمطّلع على أسرارها وخفاياها الخبير بما يتراءى له من الأنواء؛ عندما يفجأه أسلوب لا قدرة للخلق على صياغته، وتغمره صور من تلك التي عُني بها ليست كما بدت له، بل جعلته كأنه لم يرها من قبل، فإنه لا يملك أمام ذلك إلّا الإيمان بالخالق الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، ولعلّ الأمر يزداد

(1) سورة يوسف من الآية 25.
(2) سورة النمل من الآية 24.
(3) سورة النمل من الآية 27.
(4) كلام البدايات، أدونيس، دار الآداب، ط 1، 1989، ص 205.
(5) سورة الكهف من الآية 84.
(6) سورة يس من الآية 39.
(7) سورة يس، الآية 39.
(8) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، دار الحديث القاهرة، ط 1، بيروت، ص 393.
(9) سورة الشمس، الآيات 1 - 10.
(10) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، عبد الاله الصائغ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 1997، ص 199 – 201.
(11) الموازنة بين أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن الآمدي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف ط 4، بدون ت، ج 1، ص 60.

وضوحًا إذ نستحضر قصة سَحَرَة فرعون الذين فاجأهم من الله ما لم يحيطوا به فأدركوا أنّ ما جاء به موسى عليه السلام لا يكون إلّا من العليم الخبير، وأنّهم أمامه من الصاغرين، فكانوا بما لديهم من علم، الأقرب إلى الانزياح عن ضلالتهم واعتناق الحق المبين، في إيمانٍ ويقينٍ لا يُخامره شكّ ولا يُزيله وعيد.

فهذا القَسَم الذي أُفتتحت به سورة الشمس، وهذا المشهد المتنامي في الذهن، باستخدام الصور المُحسّة حتى بلوغه المتخيّل من حالات النفس، وهذا الربط بين الحقائق وبين ما كانوا يعتقدون في تلك الأنواء التي ترتبط بما عرفوا من الكهانة والتنجيم[1]، كل هذا يغمر السامع بفيض من النور الإلهي الذي تطمئن به القلوب وتسكن به الجوارح فقوّة الصورة في هذا القَسَم تمت باستخدام الكلمات الوصفية الذي أضفى على الأسلوب قوّة وجمالًا (والكلمات الوصفية تلك التي تصوّر مشاهد أو حوادث تلفت النظر وتثير الإعجاب، دالة على ما في الموصوف من بهجة ممتعة أو إبداع عجيب) [2] ومن أهم الغايات التي دفعت إلى الدراسة والبحث والتأليف في اللغة العربية وآدابها – لا سيما القُدامى منهم – هي فهم أسرار الجمال ونواحي التفوّق التي تفرّد بها كتاب الله تعالى، فـ (أولى الغايات التي كان يرمي إليها أبو هلال من تأليف الصناعتين كانت غاية دينية أولًا، وأدبية ثانيًا) [3]

ومن الواضح في هذا القَسَم مراعاة حال المخاطب، فالمخاطب لا يعي إلّا ما يتراءى لأهل الأرض من شروق وغروب وليل ونهار وسماء وأرض، وفي كل ذلك إشارات استدلالية و(يتوقف نجاح فعل التواصل الإشاري الاستدلالي الذي يمثّله خطاب ما على قدرة المخاطب على تأويل الخطاب، أي تحصيل القصد الإخباري الشامل للمتكلّم)[4] فهذه الثنائية في هذا القَسَم بأظهر المخلوقات في الكون، وأشدّها سطوعًا وأقواها أثرًا رغم بُعدها واستحالة الإحاطة بها، وكانت خاتمة القَسَم بالنفس التي بين جوانحنا تلكم التي لا نعرف عنها إلّا القليل، الخفيّة في أعماقنا رغم قربها وملازمتها لنا، ولا تخفى الايحاءات المركّبة في هذا القَسَم فاقترنت الشمس بالضّحى وهو وقت الأمن والطمأنينة والبهجة والكَسْب واللعب لا سيما في تلك البيئة التي يتنزّل فيه الوحي، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَنْ يَّأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[5] ومجيء البأس على حين غِرّة أشدُّ وَقْعًا على النفس، وفي هذا يقول المهلهل:

أضحت وأضحى سورها من بعده *** متهدّم الأركان والبنيان[6]

فهذه الإيحاءات التي تشير إلى اليقظة والانتباه إلى الظاهر والخفي وهذا التقلّب الذي يعتري أحوال الخلق، هو أيضًا يعتري النفس التي في حاجة إلى اليقظة والانتباه، وجاء القسم مقرونًا بإذا، سواء أكانت هنا شرطية أم ظرفية، فهي تُحَدِّدُ حالة القمر وزمنه (فتلا) تعني تعقّب وتبع واقتفى[7] (وتتالت الأمور: تلا بعضٌ بعضًا) [8] فتحديد القَسَم بالقمر وهي تتلو الشمس أمر يحتاج إلى استجلاء أبعاده، وبمعاودة النظر في هذا المشهد الكوني الدائم نجد هذا التعقّب والاقتفاء في صورته الدّقيقة الجلية لا تكون إلّا في منتصف كل شهر قمري، فما تغيب الشمس على الأنظار أو تكاد، إلّا والقمر يتراءى في الجهة المقابلة في أوج اكتماله، والنّاظر إليه في تلك الآونة لأيًا ما يبّنه، لعدم انسلاخ ضوء النهار تمامًا، فإذا اكتمل انسلاخ النّهار تجلّت، فسبحان الذي صاغ هذا المشهد البديع ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّيۡهَا**﴾[9] بهذه الدّقة والإحكام، والتجلية إظهار ما كان غائبًا فما فعله النهار بانسلاخه، هو أشبه بما فعلته السيول بجريانها على أطلال لبيد بن ربيعة العامري حيث قال:

وجلا السُّيول عن الطلول كأنَّها *** زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقلَامُها[10]

ولعلّ التدبّر في هذا المشهد يُبين عن نفائس هذه الصورة التي تتجاوز معناها الحرفي لتفتح أمام المتأمّل آفاقًا بعيدة تُحفّز العقل على التفكير، وتستدرّ الخيال، ليتجلّى الأسلوب في سموّه وقوته، وتتراءى الغاية منه في لطف وسماحة ويسر، فإذا كان المعتاد أن تتجلّى الأشياء بانسلاخ الليل، فإنها هنا تتجلّى بانسلاخ النهار، وإذا كانت الأشياء تختفي على الأنظار إذ يغشاه الليل، فهي بذلك تزداد سطوعًا وحُسنًا وبهاءً، وكأننا ونحن نُعمل العقل في

(1) الملل والنحل، أبو الفتح بن عبدالكريم، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون ط، 1975، ج 2، ص 238.
(2) النقد الأدبي في آثار أعلامه، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط 1، 1996، ص 52.
(3) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، بدوي طبانه، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط 3، 1981، ص 95.
(4) تداوليّة الخطاب من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب، آن روبول، جاك موشلار، ترجمة وتعليق لحسن بوتلاي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، 202، ص 221.
(5) سورة الأعراف، الآية 97.
(6) ديوان المهلهل، شرح وتحقيق: أنطوان محسن القوّال، دار الجيل بيروت، ط 1، 1995، ص 88.
(7) معجم المرادفات والأضداد، ص 177.
(8) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط 8، 2005، ص 1265.
(9) سورة الشمس، الآية 3.
(10) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، الشيخ أحمد الشنقيطي، دار الأندلس بيروت لبنان، (بدون ت ط)، ص 124.

هذا المشهد المُحكم، نرمق الإيحاء إلى تلك النفس التي أُختتم بها القَسَم في الآيات المعنية، ألم نر في نفس نبي الله أيوب عليه السّلام صبرًا وثباتًا يسرّ الناظرين بعد انسلاخ العافية عن جسده؟ ألم نر في نفس يوسف عليه السلام السماحة والصفح بعد أن غشيه كيد أخوته؟ ألم تتراءى تلك النفس المؤمنة المطمئنّة في امرأة فرعون وقد غشيها فرعون بظلمه وطغيانه؟ فالقسم بهذه الدّقة المتناهية المنضبطة حسابيًا في الشروق والغروب والأيام والشهور يوازيها دقّة في تطابق التصوير والتوافق بين الدّال من الصورة والمدلول في خفايا النفس.

ولعلّ العبرة في هذا المشهد المحكم الدقيق هي اليوم أكثر وضوحًا، فالقمر سطح يُنير بضوء غيره، فإذا حُجب عنه ذاك الضوء رأيته قاتمًا كاسفًا كالنفس التي يُحجب عنها نور الله، فالارتباط بين القسم والمُقسم به والغاية منه إحكام شديد يتنامى إلى بلوغ غايته، وإنّ النّاظر في أساليب العرب التي خلّدها الزمن ليجد الربط محكمًا بين التمهيد وصميم الموضوع الذي لأجله كانت صياغة الألفاظ والتركيب، وكل ذلك كان بحسبان.

فـ ﴿**ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَۖ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَۖ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ**﴾(1)

والله سبحانه وتعالى أعلم.

(1) سورة الرحمن، الآيات 1-5.

الخاتمة

1. يؤكد البحث أنَّ التوسّع في معرفة البيئة التي تنزّل فيها القرآن يُضفي على مدلول اللفظ القرآني دقّة ووضوحًا.
2. تبين من البحث أنّ التعمّق في معرفة أساليب العرب القدامى يُعين على فهم خفايا آيات الذكر الحكيم.
3. يحذّر البحث من النظرة العجلى في الألفاظ والتراكيب القرآنية لا سيما المرتبط منها بالحقائق الكونية.
4. أبان البحث عن روعة الدقّة والإحكام في القرآن من خلال توظيف آيتي الشمس والقمر، وتطابق الصورة فيهما مع مدلول الألفاظ.
5. بدا من خلال البحث الإعجاز في الخطاب القرآني الذي لا إشكال في الخطاب به، رغم اختلاف أحوال المتلقين وأزمنتهم.
6. يؤكد البحث تعصّي محاكاة القرآن الكريم على الخلق لما فيه من إعجاز في الدّال والمدلول، وما فيه من توافق بين الآيات الكونية وما جاء في الآيات القرآنية.

مصادر البحث ومراجعه

- **القرآن الكريم**

1. تداولية الخطاب من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب، آن روبول، جاك موشلار، ترجمة وتعليق لحسن بوتلاي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1 (بدون ت).
2. تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، دار الحديث القاهرة، ط 1 (بدون ت).
3. تفسير الماوردي، تحقيق السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان (بدون ط ت).
4. التوفيق على مهمات التعاريف، زين الدين المناوي، عالم الكتب القاهرة، ط 1، 1990.
5. الجني الداني في حروف المعاني، أبو محمد المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1992.
6. الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية، عبدالإله الصائغ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط 1، 1997.
7. ديوان زهير بن أبي سُلمى، دار صادر بيروت، (بدون ط ت).
8. ديوان المهلهل، شرح وتحقيق، أنطوان محسن القوّال، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1994.
9. شرح ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عباس إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط 1، 1994.
10. شرح ديوان عنترة، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 3، 2002.
11. شرح المعلّقات السبع، حسين الزوزني، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط 1، 2005.
12. شرح المعلّقات العشر وأخبار شعرائها، الشيخ أحمد الشنقيطي، دار الأندلس، بيروت لبنان، (بدون ط ت).
13. فقه اللغة وسرّ العربية، عبدالملك الثعالبي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط 1، 1422 ه.
14. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط 8، 2005.
15. كلام البدايات، أودنيس، دار الآداب، ط 1، 1989.
16. معجم المرادفات والأضداد، إعداد سعدي الضناوي، جوزيف مالك، المؤسسة الحديثة للكتاب، ناشرون، طرابلس لبنان، ط 1، 2007.
17. الملل والنحل، أبو الفتح بن عبدالكريم، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة بيروت، (بدون ط)، 1975.
18. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، ط 4، (بدون ت).
19. النقد الأدبي في آثار أعلامه، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 1996.
20. أبو هلال العسكري، ومقاييسه البلاغية والنقدية، بدوي طبانة، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط 3، 1981.